فراشتي

فراشتي

(قصص قصيرة)

ليلى راشد

قدم له الناقد الكبير

د. حسام عقل

اســـم الناشـــر : مؤسسة صهيل الأدبية

اســـم الكتـــاب : فراشتي

اســـم المؤلـــف : ليلى راشد

رقـــم الإيـــداع : 28680

الترقيـم الدولي : 978/977-85653-0-0

تصميم الغلاف : القسم الفني بمؤسسة صهيل الأدبية

الإهداء

إلى جدي إسماعيل

أول من علمني معنى الحب

إلى أبي عبد المنعم راشد

أول من أهداني كتابًا وعلمني حرفا

إلى ولديَّ:

رضوى ومحمد

ليلى

ليلى راشد.. المراوحة السردية بين عتبة الغابة وعمقها!

كان الناقد المبدع "إمبرتو إيكو" يرى أن السَّرد، أياً ما كانت قوالبه وأنواعه، لون من (ولوج الغابة) بكل ما ينطوي عليه هذا الولوج من نزق ومخاطرة وجدَّة مثيرة. وقد ضمَّن هذه الرؤية الخاصة لمغامرة السَّرد في ست محاضرات ألقاها في جامعة (هارفارد) جُمعت، فيما بعد، في كتاب بالعنوان ذاته: "ولوج الغابة".

ومن باب التشاكل الاستعاريّ، نقول إن ليلى راشد آثرت أن تطرق معنا – الطرقة الأولى في عوالم القصّ، توطئة لـ "دخول الغابة"، فكان في عوالمها القصصية الموَّاراة كل ما يمكن أن تقع عليه في الغابة من الأشجار المتسقة آناً، أو الأغصان المتشابكة فى غير نظام آناً، أو الرقعة المعشوشبة المنبسطة حيناً أو القفر الرملي المتجهم حيناً، لكنها فضلت – فى كل الأحوال – أن تواصل رحلتها بتشكيل

البنية ورسم الشخوص وترسيخ أطر الزمان والمكان ومعابثة أفق التيمات الجديدة، دون أن تتوقف الرحلة بفعل أية عثرات متوقعة.

ولم يكن اختيار ليلى راشد – فى باكورة جهدها السرَّدى – من القصة القصيرة، إيثاراً لامتطاء المركب الأسهل، فالقصة القصيرة، بوصفها نوعاً أدبياً هجيناً يمتاح من عدة أجناس، لم تكن بأى معنى هى "المركب الأسهل" أو الأقل وعورة، منذ تأسست لها هياكل ثابتة معروفة بظهور أول تعريف شبه منضبط لها فى معجم "أكسفورد" عام ١٩٣٣.

يلوح لنا، للوهلة الأولى، أن ليلى راشد حرصت على التنوع، في المحل الأول، سواء أكان هذا التنوع ماثلاً في التيمات أو الأحجام أو مناظير الرؤية وزواياها.

ففي قصة: "فراشتى"، فضلت القاصَّة أن يكون سردها مروياً بضمير المتكلم "first person narrative"، حيث يكتسح رقعة السرد فيض من (النوستالجيا)؛ إذ طالعت الفتاة كتاباً قديماً يحتضن – بين دفتيه – فراشة محنطة، وما لبث الكتاب أنْ استدار بها – بالاجترار والاستدعاء الزمنيين– إلى "حديقة البيت القديم" حيث شجرة الليمون الصغيرة ووريقات النعناع، ويتآزر مع هذه الفلزات المتقطعة من قلب الطبيعة بسمة الأب ودماثة الأم، والحاضنة العائلية الرحيبة.

ونأنس – فى تذييل القصة – نمطاً ملتاعاً من أنماط العودة القاسية المصدومة – بالتواثب بين الأزمنة – إلى لحظة الكتاب والفراشة المحنطة والأعمار الطَّاعنة، بعد جنوح سفينة (الراوى) إلى رقعة الخريف!

وهذا القفز الزمنى الحاد، طياً للمراحل والأزمنة المتطاولة، سيغدو سمة بينوية شديدة الوضوح في سرد المجموعة القصصية بإجمال؛ ففى قصة: "أبى" تنجذب موجات النوستالجيا، بنا، إلى زهوة البيت القديم وصبْواته، حيث الأب الذي يبسط ظلاً وارفاً من الحنو على الابنة، وتتألق – بالتوازى– ذكريات (رأس البر) وميعة الصبا، حيث يزج الأب بالابنة "متأبطا ذراعها كعادته". وكعادة الراوي في حرف مسار السرد، زمانا ووجهة، تُذيل القصة بصفعة الواقع المسنون الحادّ، حيث الطفلة امرأة محزونة معزولة تفتقد "أباً مات" من زمن بعيد. ويتكشف فى انطلاقة السرد المتكررة المتناوبة تكنيك المفارقة، القائم – فى جوهره – على تفجير زخم الأزمنة المتقابلة.

وفى قصة: "لبنى" يتأكد منحى الندم الموجع على اللحظات الرائعة – ذات الطابع الماضويَّ – وهي اللحظات السَّاربة التى جحدناها، فيما بعد، أو لم نقم لها وزناً أو لم نقدر – في الحق – ما تمثله في ضمائرنا من ثقل وحضور وجداني وأخلاقي.

وفي هذا الإطار الطَّافح بدلالة النَّدم، يستعيد (وحيد) زهوة (الحب القديم)، ويلذعه بإيجاع ما قارفه من إثم الجحود الشديد لهذا الماضي الناضر المفعم بحب صافٍ لا يشوبه كدر، وعندما تبلغ دراما الندم الماثل ذروتها الكبرى، يحتكم الراوي – كعادته! – إلى لعبة التقافز الأكروباتي بين الأزمنة، حيث يتابع المحب محبوبته، من خلال الزجاج، ممددة على سرير الأطباء؛ إذ تُبذل محاولات مستميتة لإبقائها على قيد الحياة. وحين تفيق لا تزيد عن أن تقول

له، برومانتيكية والهة: "قتلني حبي وشوقي إليك"! فيبقى – بعد موجات الصدمات والمراجعات الحادَّة – أسيرا لمحاكمات الضمير أو ما أسماه الراوي "عقاب الأيام"!

وتميل بنا قصة: (الصندوق)، إلى فضاء السرد النفسي المكثف، القائم في أحداثه ووقائعه على أساس (سيكلوجي) يتغلغل في خلايا السَّرد المتضامة تدريجياً. ونأنس هنا لوناً من التحويم السَّردى حول خصوصية الأنثى، وولعها الغريزيّ بخصيصة الاحتواء. ولا نبعد عن الواقع النفسي الماثل كثيراً، إذا قلنا إنّ الصندوق الخشبي، في أبعاده النفسية المركبة، قد نهض هنا بفعل الاحتواء! ولم يعد غريباً، بعد تلاحم الخلايا السَّردية تدريجياً، أن نلحظ ولع الراوي، مع امتطاء السرد ذروة مّده، بمغامرة القفزة الزمنية الواسعة (المعتادة!) بين المراحل والأطوار حيث صاحبة الصندوق "جّدة ذات

أحفاد"! وحين يشرع حفيدها الأكبر فى مغامرة الإقدام على فتح الصندوق – بعد رحيلها – لا يجد في جوفه الغامض إلا أصداء "طفولة ضائعة" بوجيبها الحيّ!

غرفت الانطلاقة السَّردية فى المجموعة بتمامها، معنى التقلب بين الموجات والانحناءات الحادة، قوة وضعفاً، أو مداً وانحساراً، كما غرفت، بصورة موازية، معنى توزيع الأدوات السَّردية بشكل متفاوت على قصص المجموعة، فقامت بعض القصص على نسق العملية السَّردية المتلاحمة المتصلة، أو على نسق تيار الوعى وإضاءة خبيئة الفضاء اللاشعوريّ من الداخل، وخلصت بعض القصص لتقنية الحوار المركَّز ـ كما في قصة: "القطار" ـ وفي هذا كلَّه برزت لنا، بقوة، تجليات الفعل السَّردي "التوزيعى" لأدوات السَّرد ومكوناته البنيوية عبر القصص.

ومع قصة: "المفتاح"، تترسخ قصة / الومضة؛ إذ لا تتعدى القصة سطرين ونصفا، وبتفكيك مكونات اللوحة السَّردية المماثلة، نلحظ تلاحم الأبنية والتذييل بفضاء الإدهاش، على النحو الذي نجده، دوماً، فى (قصة / الومضة) " flash fiction"، أو كما أسماها د. محمد رمصيص: "القصّ الوامض" (خصوصاً في كتابه: "قضايا القص الوامض في المغرب"). وإن تخلل بنية المشهد السردي الماثل بعض الاعتوار ومظاهر الخلل البينوي. فالمحبة تنتظر، باشتياق لاذع، رجلها المعشوق أو الإلف – مع صوت المفتاح يدار في الباب . وتهرول بانتشاء لتعدل صورتها وهندامها أمام المرآة، قبل أنْ ينعقد – بجديلة شبه محكمة – التذييل القائم على الإدهاش: "..تنتبه أن صاحب المفتاح رحل..!" ويعد

فضاء (التذييل المدهش) من المكونات البنيوية الأساسية فى "سرد الومضة".

ومن المنابع نفسها – فى الأنساق البنيوية ورقعة التذييل المشعة بالإدهاش – ترد قصة: "بوح" (في نحو من سطر ونصف). وإن برزت مناطق صدوع بنيوية لدى الختام، حيث جاء التذييل خلوا من دلالة الإدهاش بالقدر الذي يذهل المتلقي، أو مباغتة القارئ بشئ لا يتوقعه!

ولم تخل بعض القصص من لعبة الإدهاش وكسر الفروض النمطية المتوقعة – في غير قصص الومضة – كما في قصة: "مكاشفة"، حيث نأنس ما اسماه "هانز روبرت ياوس" "كسر أفق التوقع"، حين تفاجأ العاشقة بجحود المعشوق وتنكبه لمواثيق المجبين، لدى قوله: "..اكتفيت لن أكمل

تمثيلى.."! وهذا يسطع معنى المضيِّ عكس فروض التوقع التي خلقها واقع التلقى المسترسل.

استطاعت ليلى راشد، بإجمال، أنْ تضع لتجربتها الجديدة موطئ قدم دون شك فى المشهد السرَّدي، برغم بعض العثرات والهنات وما لابس قسماً من التجربة من طابع التقريرية والمباشرة، وبقى في سردها كثير من السمات الجمالية والفنية الجيدة اللافتة، حتى وإن كنا – كما يقول "إيكو" – في عتبة الغابة، لم نوغل بعد في العمق.

حسام عقل

فراشتي

أزلتُ الغبارَ عن كتابٍ قديمٍ أهداهُ لي أبي، وجلست أقلبُ بين أوراقِه، وإذا بي أجدُ فراشةً بين طياتهِ، نظرتُ إليها طويلا ومددتُ يدي، وما إن لمستُها بإصبعي حتى حركَت جناحيها وطارتْ.

مع دهشتي قمتُ لألحقَ بها فأخذتني لحديقةِ بيتنا القديمِ، وحطتْ على شجيرةِ ليمونٍ صغيرةٍ زرعتها أمي، تعثرتْ قدمي بوريقاتِ النعناعِ حولَ الشجرةِ فضحكتْ أمي وأمسكتْ بي واحتضنتني.

رفعت رأسي فلم أجدْ إلا كتابَ أبي تقطنُه فراشتي المحنطةُ.

لبنى

دوى صفير سيارة الإسعاف في الساعات الأولى من الصباح، واستقرت السيارة أمام منزل صغير في وسط الحارة الضيقة، وخرج الجميع للشرفات ليستطلعوا الأمر، بينما وقف وحيد بعينين زائغتين لسان حالهما يتساءل: أتكون هي؟ بينما يخرج رجال الإسعاف حاملين على النقالة فتاة لا تتعدى الخامسة والعشرين من عمرها ذابلة كوردة دون ماء هزيلة القد كطفلة في العاشرة، وانطلقت السيارة بها ليندفع وحيد صارخا باسمها... يصل المستشفى ويشاهدها من خلف الزجاج ومحاولات إنعاش قلبها المستميتة ويخرج الطبيب ليعلن أن الأمل في نجاتها ضعيف، فيدخل وحيد مندفعا محتضنا يدها متوسلا: لاتتركيني فلا حياة بعدك.

فتحت لبنى عينيها: قتلنى حبك وشوقي إليك.

ويخرج وحيد متهما بالقتل بلا أدلة ولاعقاب، إلا عقاب الأيام.

أبي

عاد أبي من عمله كعادته فى المساء، دخل غرفتى مداعبا إياي؛ فأنا حبيبته بلا شك، وهو أحب إلى قلبي من نفسي، دخل غرفته ليعلن لأمى أننا ذاهبون إلى رأس البر كعادتنا كل عام وعليها أن تستعد، انقلب المنزل الصغير الهادئ إلى صرخات فرح؛ رأس البر بالنسبة لنا هي الحياة، حيث شاطئ البحر وشارع النيل وسهرات الليل مع سينما اللبان ومسرح المدينة...

سافرنا إلى المدينة الساحلية الساحرة لنقضي أجمل أجازة، ولا أدري لماذا كانت هي الأجمل؟

أبي وأمي لم يتشاحنا، لا تلقى أمي تعليماتها الصارمة إلينا، كل شئ كان متكاملا؛ أما أبي فقد كان يقضي كل وقته معي، يخرج بي متأبطا ذراعي كعادته.

وعند عودتنا من الخارج يجلس بجواري على حافة سريري.

قلت له: أحبك قبلني فوق جبيني، مددت يدي لأحتضنه فلم أستطع.

أغلى طبخة

جرت الأم تبحث عن صغيرتها ذات التسعة أعوام أمام البيت في تلك المدينة القابعة على النيل.

وأخذت تنفض تراب اللعب عنها وتسوي تلك الجديلة الصفراء على ظهر الطفلة الحسناء زرقاء العينين. فمن تجلس بالداخل أم العريس القادم للحسناء، وما هى إلا عدة أيام وكان صندوق العرس قد اكتمل.

على ظهر جمل سيقت الطفلة إلى منزل زوجها الثلاثيني، ضاعت طفولتها يومها وحاولت مرارا أن تلعب مع أقرانها فكان العقاب من نصيبها، ويوما كانت تحاول إعداد الطعام وأوقدت الكانون ووضعت القدر فوقه وعاد الزوج ليجد الطعام قد جهز ونضج، وسألها: بمَ أوقدت الكانون؟ فأجابت: بالورق الموجود بالحجرة.

كان نصيبها علقة ساخنة ونصيبه ضياع عشرة أوراق من أم مدنة، أي فئة مائة جنيه، وأرسلها مطلقة لبيت أهلها تحمل طفلتها نظير وجبة كلفته ١٠٠٠ جنيه عام ١٩٠٥.

الصندوق

منذ كانتْ في الخامسةِ من عمرِها، وهي حريصةً على ألا يمسَ صندوقَها الخشبيّ أيُّ مخلوقٍ. ومفتاحُه مُعَلَّقٌ برقبتِها، والكلُّ يتساءلُ عن أسرارِه. وتمرُ سنون كثيرةٌ وتتعاقبُ الأجيالُ بزواجِ إخوتِها وزواجِها. وشبَّ أطفالُ العائلة وأصبحت جدتَهُم الطيبةَ. وظلَ صندوقُها سرًا لا يعلمُه أحدٌ، تغلقُ بابَ حجرتِها لتنفردَ به لساعاتٍ وسطَ الفضول، حتى مرضتْ ووافاها الأجلُ، كانَ معها فى لحظاتِها الأخيرة حفيدُها الأكبرُ. وبعد انتهاءِ العزاءِ دخلَ غرفتَها وأغلقَ البابَ على نفسِه لساعةٍ وخرجَ بعدَها ليجدَهم فى انتظارِه مترقبين!!! ماذا بالصندوقِ؟

كان الصندوق خاويًا إلا من صورة فوتوغرافية عتيقة.

العطش

ظهر فجأة من خلف تلال العطش والوحدة كشبح محاولا الدخول لأعماقها، وفي وضوح سايرته بلا خوف وهي لاتعلم إن كانت تتحداه أم تتحدى مشاعر كبحت جماحها طويلا، استغل كل أسلحته الساحرة وبلا مقاومة أحبت جروحها لتفيق من تلك البرودة التي أصابتها من تعاقب مواسم الشتاء، وبدأ ربيع قلبها يزهر نقشا جديدا ووشما رائعا تشعر به دما يجرى ويسيل، جاءها منتشيا فبادرته:

- أعلم أنك ستهجرني فقررت شكرك قبل الرحيل أن أنعشت من كان على وشك الوفاة.

الفرح

رأته في زفاف بسيط على شاطئ النيل لأحد الأصدقاء المشتركين، ولفت نظرها إلحاح من حوله في طلب الغناء، وقام ليغني فأطرب المدعوين بأرق النغمات لمحمد قنديل وكارم محمود، وهبوا جميعا واقفين في تصفيق حاد وهي معهم، طالبين المزيد فنظر إليها فتمتمت: ياحاسدين الناس، فأشار إليها وغنى: شفت حبيبي لعبد المطلب... وانفض الحفل وذهب كلّ في طريق..

مرت شهور ورأته مرة أخرى على أحد الشواطئ الهادئة مع نفس الأصدقاء، اقترب منها هامسا:

- هل تتزوجيننى؟

فقالت:

- لا وألف لا. يكفينى تجربة واحدة قاسية.

لم يكتفِ بكلمة لا وطاردها شهورا حتى بدأت تبحث عنه إذا لم تره، وإذا رأته ترتعش يداها وينبض قلبها بعنف، وتؤلمها معدتها، ولم تكن تعرف إنه الحب!! طلبها للزواج مرة أخرى وافقت وكانت تنتظر إعادة الطلب مرة أخرى.

عاشت الحب كملكة متوجة لعرش قلبه، نسيت اسمها ولم تتذكر إلا حبيبتي، كما ناداها أول مرة بعد الزواج.

عام مضى على زواجهما كشهر عسل رائع ذاقت فيه روعة الحب.

أعدت في عيد زواجهما عشاءً هادئا، ودق جرس الباب ولم يكن هو، كان هناك من يحمل أشياءه؛ فقد اختطفت حبها سيارة مسرعة.

لم تشعر إلا بقلبها يتمزق وعينيها تطبق على صورته يوم عرسها.

حوار

جلست في مقعدها بالقطار المتجه إلى ساحرة الجنوب أسوان. كانت قد اختارت مقعدها المنفرد بعناية مجاورا للنافذة بمنتصف العربة. تحرك القطار طلبت كوب شاى وجلست ترشفه بهدوء شديد، كأنها لا تريده أن ينتهي. سرحت بعينيها عبر النافذة وتذكرت يوم التقت به في نفس القطار ونفس المكان عندما استأذنها في الجلوس طالبا فنجانا من القهوة وبهدوء شديد بدأ يرتشف قهوته مباغتا إياها بجرأة شديدة وهو ينظر في عينيها قائلا:

- عيناك جميلتان جدا وفيهما عمق وعاطفة لاتصرحين بها.

ضحكت دون خجل، فاسترسل:

هل أنت متزوجة؟

فهزت رأسها بالنفي ليقول:

- إذا أمامي فرصة رائعة للزواج من رائعة مثلك.

وبدأت في الضحك بصوت عال متذكرة مقولة لا تعرف مصدرها: "تزوجي من رجل يستطيع أن ينتزع ضحكاتك". وطوال الطريق الممتد لثماني ساعات جلسا يتحادثان ويضحكان، وعرف عنها كل شيء، وعندما وصلا إلى أسوان كانت قد شعرت ناحيته بنوع من العاطفة الهادئة.

احتضن يدها بين يديه الدافئتين قائلا:

- لا تتركينى.

وغادرا القطار لتشاهد تلك الفاتنة تجري نحوه مقبلة إياه على الوجنتين وطفلة صغيرة تتعلق به قائلة:

- افتقدنك أبي.

واختفت هي في زحام الحياة.

سنوات عشرون مضت منذ تلك اللحظة وهي لم تتزوج لأنها تراهم كاذبين.

لم تنتبه أن كوبها قد فرغ من الشاي، ورفعت رأسها لتنادى الجرسون لتجده أمامها لم يتغير إلا من شعيرات بيضاء غزت رأسه. وبعينين عاتبتين قال:

- انتظرتك طويلا وبحثت عنك يومها لأعرفك على شقيقتي وابنتي الوحيدة التي كنت أتمنى أن تشاركينا رحلة الحياة بعد وفاة أمها.

المفتاح

خطواته تقترب من الباب، صوت المفتاح يعلو، تهرول لتصلح من شأنها، أمام المرآة تنتبه أن صاحب المفتاح رحل.

أمى

كانت أمى سمراء تحمل ميراث جد تركي وجدة نوبية.

قوية، حازمة، صعبة المراس لاتبتسم إلا قليلا.

أبي كان ودودا ضاحكا، محبا، متسامحا.

كنت دائما منحازة إلى أبي وعلاقتي بأمي متوترة.

رحل أبي مبكرا وصارت هي أشد قوة وحزما. حتى رحلت فجأة وحصيلة عمري ١٨ عاما.

مرت سنوات وعيت خلالها أني ورثت خليطا من صفات أبي وأمي.

علمت أنها كانت ربان السفينة ولولاها لغرقنا جميعا.

اليوم يا أمي قد وصلت لعمر لم تصلي إليه ووجدتني أحمل عاطفة جياشة، أحمل الحب للجميع. قوية في الحق وصارمة.

سامحيني واقبلي عذري.

آهة

صعد رجل في آخر الستينات من عمره الميكروباص المسافر إلى الإسكندرية وأخذ في إلقاء القفشات والنكات طوال الطريق ومحاولة الحديث مع كل ركاب السيارة حتى ضاقوا به..

فجأة قاطعه أحد الشباب وبصوت حاد: اسكت صدعتنا، صمت الرجل وركن رأسه على زجاج النافذة مغمضا عينيه، سقطت دمعة على وجنتيه.

تيتة

سمعتها مئات المرات وأحبتها، وتمنت على الله أن تكون واحدة منها حقيقية بها رائحة رحمها.

قال الأطباء جميعهم: لا أمل.

رضيت كالعادة بأمر الله، وأمامها الآية الكريمة "ولسوف يعطيك ربك فترضى". لا تعى معنى "ولسوف يعطيك"، وعت الرضا فقط. أما حتمية العطاء فما وعتها.

ذات يوم وقت صلاة الفجر عرفت إنها ستكون تيتة.

جيوب

طفلة فى العاشرة تحمل طفلتها عائدة لبيت أبيها..

تتزوج من يعيش معها طفولتها ويدللها حبا..

كان سر تمسكها بالجيوب الكبيرة في جلبابها لتضع فيها الحلوى والحمص حتى وفاتها في التسعين من عمرها.

حب بمت

دق القلب وتحركت مشاعر غريبة لأول مرة حين لمحته في النافذة المقابلة، نظر إليها، بادلته النظرات شهورا طويلة حتى تجرأ ذات صباح وأمسك يدها في الطريق إلى المدرسة، هنا شعرت أن الأرض تدور تحت قدميها ويتدفق الدم بقوة في شرايين قلبها الخافق بعنف، كان هو حبها الأول عاشت به سنوات المراهقة حتى التحقت بالجامعة وانتقلوا من منزلهم في إحدى المدن الساحلية إلى القاهرة حيث زحام الحياة وخضمها الجارف الذي اجتاحها من دراسة لعمل، ونسيت خلال رحلة المعرفة أنها لم تتزوج حتى تجاوزت الأربعين من عمرها وأن الجميع ينظر إليها في أسى، وهى سعيدة بحياتها، وبما أنجزت خلال سنواتها الماضية، في إجازة قصيرة على أحد الشواطئ وجدته أمامها يمد يده

مصافحا إياها وعيناه كسهم اخترق القلب والعقل قائلا: وحشتيني قوي.

وكأنهما لم يفترقا ضحكت قائلة وإنت كمان يداهما متشابكتان يتناجيان، إنه الحب لم يرحل مع الأيام.

حب

أشرقت الشمس.

اكتمل البدر.

وتوقفت الأرض عن الدوران

عندما قال: أحبك.

حرام

الحب حرام! قالتها أم نور عندما سألتها عنه، وردت الصغيرة: كيف هذا ألا تحبيننى؟ قالت: هذه أمومة

مرت سنون طويلة، وكبرت الصغيرة نور، وصارت للجمال والأنوثة مثالا. عيناها بريئتان إلا من بريق الخوف، وقلبها مرتعش هلعا من الوقوع في الحرام، ودق القلب بعنف واهتزت معه كل أوصالها رعبا لزميل عمل ... ذهبت إلى أمها وقد صارت عجوزا باهتة العينين ميتة القلب جسد بلا روح، تشكو لها وجع القلب، والخوف فزادتها خوفا، ونصحتها بالصلاة فتوضأت وصلت لله في خشوع تلتمس الهدوء والراحة وناجت ربها: "ياربى أنت خلقتنى وخلقت قلبي ووضعت فيه حبك فكيف تعلمني الحب ثم تعاقبني عليه؟ يارب سامحنى أو انزع عني قلبي.

حضن جدي

دخل جدي إسماعيل من الباب في هدوء، شخصت ببصرى إليه في حب شديد، احتضنني وقبلني فوق جبينى وسمح لي بقراءة جريدته، في المساء جلس واضعا بجانبه صينية القهوة وأمامه وعاء كبير يحوي فحما مشتعلا واضعا فوقه "أبو فروة" ونحن جميعا حوله: جدتي وأخوالي الثلاثة وأمي وخالاتي الثلاثة وأربعة عشر حفيدا وحفيدة أنا أكبرهم، هييه ذكريات. وبعد ليلة طويلة من الشوق لأيام الطفولة والصبا لملمت مشاعرى وذهبت لبيت جدي، وقفت أمامه فى دهشة: هل سرق أحدهم البيت أم ماذا؟! فتحت الباب القديم المتهالك وبالكاد دخلت إلى الصالة، يا الله لم تكن مساحة البيت لتكفينا؟! لكنه كان حضن جدي ودفء العائلة المفقود.

مكاشفة

لقاؤهما كان صدفة، تناقشا في حدةٍ، طلبها معتذرا، ضحكتْ، اتفقا على موعدٍ لفنجانيّ شاي، تكررَ اللقاءُ وعندما قالَ لها: أحبك.

شعرتْ بقلبِها يتراقصُ محتفيا بالحياةِ بعد أن اقتربَ من الموتِ وتمنتْ لو أخذها بين ذراعيْه عادتْ تعيشُ المراهقةَ بكل مشاعرِها. همسَ في أذنِها: اكتفيتُ لن أكملَ تمثيلي!! تراجعتْ للخلفِ توقف قلبُها عن الحياة.

دموع

أشعلتْ مصباحَ مرآتِها وتأملتْ تجاعيدَ وجهِها وشعرِها المشتعلْ شيبا شردت بفكرِها بعيدا:

سنواتِ عمرِها تسربتْ، ولم تذقْ فيها سوى طعمِ الأسى. أطفأتْ المصباحَ في حزنٍ وجلستْ على حافةِ سريرِها الباردِ تتذكرُ أيامَ الصبا حينَ كانت تنتظرُ الشتاءَ والمطرَ لتتدثرَ بما يدفئُ الجسدَ وتغفو حالمةً بيومٍ يأتي الدفء للقلبِ دونَ غطاءٍ.

تذكرتُه عندما اقتحمَ جلستَها فى ناديها ليعرَّفَها بنفسه ويتجاذبَ معها أطرافَ الحديثِ، وكيف تعالتْ منها ضحكاتٌ توارتْ سنين من شفتيها واعترفَ لها بأنه يراقبُها منذُ فترةٍ، وتعجبَ كيف لأحداثٍ جسامٍ مرتْ بها، ولسنواتٍ لم يرَ دموعَها قط، وكيف لها هذا الجمود؟! فنظرتْ له طويلا وقالت:

– كيف أبكى وليسَ هناكَ من يمسحُ دمعى؟! ولذا لم أسمحْ لها أن تسيلَ. فإذا به يمدُّ يدَه ليربِتَ على كتفِها فانسابتْ دموعُه فجأةً وهو يمدُ أصبعَه ماسحا دمعةً سالتْ على وجنتِها.

هاجمتها الذكريات مزدحمة، لا تنسى ذلك الرفضَ القاطعَ من أخوتِها لحبهما لأنها تكبرُه بسنواتٍ، ورضوخُها لهم، فاعتصرتْ قلبَها بيديها وبقيتْ وحيدةً تجترُّ ذكرياتِها وتنظرُ نفسِها فى المرآة جالسة على حافةِ سريرِها الخالى لا تنتظر إلا بردِ الشتاء.

رجولة

لم تره إلا غاضبا يلقي أوامره في صرامة وقوة، كل من حوله يخشاه وتلك العقدة المرسومة منتصف جبهته لا تفارقه.

في الصباح أزاحت الواقف ببابه واقتحمته وسألها:

- ماذا تريدين؟

في جرأة ناعمة قالت:

- أنت!!

نظر إليها طويلا وهو يبتلع ما فى حلقه:

- يا الله لقد انتظرتك طوال عمرى.

رحلة

تغادر السيارة مسرعة، تدخل محطة القطار، تنظر حولها متعجبة؛ فهي لم تسافر منذ سنوات، يرن هاتفها:

- أيوه حبيبتي جاية حالا رصيف ٤ عربة ٨ كعادتنا وحشتيني.

تتلفت فلا تجد أحدا، تنطلق صافرة القطار مغادرا دونها، تدمع عيناها متطلعة إلى صورة بيدها.

رحمة

طارت فرحا عندما قالوا: ستتزوجين، شردت مع حلمها بالفارس المحب. ليلة زفافها تحطم الحلم وصارت امرأة حزينة، رأت حيوانا لم يهتم إلا برغبته فقط.

نظرت للسماء بدموع متوسلة:

- رحمتك بى يارب.

اقترب منها مرة أخرى وسقط ميتا.

سراب

الشمس تتوسط السماء فتلهب رأسه، يعجز عن الرؤية بوضوح.

يلوك حصاة صغيرة متألما لعلها تخفف من عطشه.

الصحراء مترامية بلا نهاية ولاملاذ.

فجأة تميل الشمس، وعلى البعد تتراءى له بعض الأشجار فيهرول إليها، وكلما اقترب تبتعد... لم إلا جبلا قاسيا.

صرخ باكيا على مستقبل بلا ملامح وحلم مستحيل وهو يضع رأسه بين يديه على حافة سريره.

صفية

فاتت من جنبي بسرعة، ناديت عليها:

- صفية.. صفية.. ولما بصت لي قلت لها:
- أنا آسفة افتكرتك قريبتي.

صفية كانت قريبة ستي أم أبويا، كنت باقول لها ياعمتي، مليانة شوية مش قصيرة ولا طويلة، بيضا وعينيها صغيرة لون الكهرمان تبص فيهم تحس إنك دبت حنان وكمان تخاف من قوتهم.

قربت منها قوي لما كانت قُرب الستين وأنا كنت حاجة وثلاتين، اكتشفت إن تاريخ ميلادنا واحد، صفية جميلة راضية وراقية، كل خروجاتنا بقت سوا والمصيف مع بعض، كل الأعياد وفطار أول يوم رمضان، وأهم حاجة عيد ميلادنا في تورتة واحدة، القرار دايما كان قراري برغبتها.

لما دخلت المستشفى كانت معايا مافارقناش بعض أبدا.

رجعت البيت وجوايا شوق كبيير لصفية وبأنبِّ نفسي إزاى نسيتها المدة دى؟ إزاي الدنيا أخدتني ومااتصلتش بيها؟

طلبتها ردت بنتها وقالت: صفية ماتت.

عشق

في زيارة لصديقه المقرب لمحها فأثارت انتباهه فهي سمراء لها جمال نادر، يحمل ذلك الخليط المصري الممزوج ببعض من سمرة النوبة وروح الترك الذائبين في نسيج مصر.

رأته بطرف عينيها كما الحلم، فارس خطف قلبها في لحظة، تزوجا، أنجبا بنين وبنات، عاشا سنوات سعادة وأخريات تعسة، رحلت تاركة حياتها وذهبت لبيت أبيها، أما هو فقد مات حزنا على حب ضاع.

اتهام

عندما أحببتك لم أتصورنى ضمن قائمة منقولاتي.

سأتركها كلها لك إلا أنا، وسأتهمك بتبديدها.

صناعة أنثى

يجلس قبالتي يرتفع صوت ضحكتي،

فتكون غصة قلبي أعمق.

حنين

كما تقترب الفراشة من النار

أقترب منك

لأحترق

ما بعد العاصفة

قرر أن يراقب تحركات تلك الفتاة التي تقطن نفس الحي؛ فهى لاتحدث أحدا ولا تفتعل أي مشكلات. قرر أن يتقدم لخطبتها، وافقت دون تردد؛ فقد بلغت السادسة والعشرين دون قصة حب أو زواج.

وتزوجها وعاشا في سعادة بالغة؛ فهو رجلها الأول وحبها الأول.. ودامت السعادة أياما سبعة فقط!!!

فقد ألقى على عاتقها كل ما يحتاجه بيتهما ماديا وبدأ يطالبها أيضا بما يلزمه من نفقات.

وبدأت مشاعرها تتخبط بين الرضا بالأمر الواقع والتعايش معه وبين شعور بالكراهية بدأ ينمو بداخل قلبها البكر بعد أن بدأ فى إهانتها أيضا، وتساءلت: لو قررت

الانفصال هل تستطيع الحياة مع لقب مطلقة أم تتعايش مع كراهيتها له التي تخشى تطورها فتقتله؟!

مشاعر حولت الفتاة الحالمة الضعيفة قوة جبارة ومعايشة الواقع فقررت الانفصال.

حملت لقب مطلقة وواجهت مجتمعها بقوة، وسيطرت على مقاليد حياتها، وأجبرت الجميع على احترامها.

صادفت رجلا طيبا محبا، تزوجته وعاشت معه حياتها التي لم تحيها من قبل.

لقاء

هبطت الطائرة، نزل الركاب، كل يعانق مستقبليه، كان هو الراكب الأخير على سلم الطائرة، لم يكن فى انتظاره إلا هيّ.

هرول ناحيتها مناديا:

حبيبتي اشتقت إليك كثيرا.

ألقت نفسها إليه باكية:

- وأنا أكثر.

وحين بدآ يتهامسان سأل المضيف زميلته:

أهي حبيبته؟

قالت: لا هما تائهان يبحثان عن الحب.

ماعرفتكش

حسيتك من نظرة عينك.

عمرك ماها تعرف مقدار حبي

غير بعد رحيلي

يمكن أكون من ضمن الأرهام

نقطة بحر محيطك

لكن إنت

آخر راجل فى حياتي

والنفس الباقي

قبل طلوع الروج.

حرب

بحثت عنها كثيرا حتى وجدتها جالسة هناك على شاطئ البحر في استرخاء ترنو إلى الأفق هي، حاولت الاقتراب منها ومحادثها إلا أنها أشاحت بوجهها عنى ولكنى لن أيأس، سأظل وراء نفسي حتى تصالحني.

هو

في جلسة من جلسات الأصدقاء، التقت به حين نظر إليها بجرأة شديدة ومقتربا ليصافحها مقدما نفسه، جلس بجوارها دون استئذان، أخذ في الحديث كأنه يعرفها طوال حياتها، دون مقدمات طلب منها أن تغادر فى صحبته ليوصلها إلى منزلها فقد تأخر الوقت.

خرجت معه دون تفكير، وفى الهواء تذكرت أنها لاتعرفه، أمسك يدها لتدب الحياة في قلبها فجأة، وهنا فقط نظرت إليه لتتأكد أنه من انتظرته زمنا ليملأ القلب ويدفئ المشاعر.

احتياج

هرول الرجل مندفعا داخل المبنى صارخا:

- إنها قادمة!!

في لمح البصر اختفى الجميع خلف مكاتبهم مهمهمين:

- رجل فى ثوب امرأة؟!

كما قائد الكتيبة فى الحرب أتت صارمة، قوية يخشاها الرجال قبل النساء.

عندما تتحدث ينصت الكل لحديثها، لبقة، لاتحيد عن الحق.

لها رأي مسموع باحترام لدى أصحاب القرار.

- هناك اجتماع مع القيادة الجديدة.

قالتها، وهي تسير فوقف الجميع خلفها.

فـي اجتمـاع همـت بتقـديم الرجـل فنظـر إليهـا، صـمتت وأرخت أهدابها، محدثة نفسها:

- **أيكون هو من أهديه ضعفي؟!**

فراق

نظر إليها متسائلا، ابتسمت في سعادة، أحبته من النظرة الأولى، فرح لفرحها، عندما مرضت جلس بجوارها حزينا يقبل يديها ووجنتيها.

تقدم بها العمر وفقدت القدرة على رعايته، طلبت منه مغادرة المنزل، غادر باكيا يرمق دموعها في أسى وعتاب منكسا أذنيه وذيله الأبيض.

وحشة

طرقت بخفة زجاج نافذتي فشهقت فرحة:

تأخرت عزيزتي وكم اشتقت إليك!

احتضنتها بكلتا يديه.

كانت أول قطرة مطر لهذا الشتاء.

الجدة الطفلة

ساقتها قدماها للحي القديم، وقفت قبالة منزل ذي شرفة حديدية عتيقة، أسندت ظهرها للحائط المقابل ، سمعت صرخات ألم متتالية ، صوتا ينادي:

فيفي ولدت ياست أم سيد.

ردت:

ولد ولا بنت؟

- بنت ياحاجة.

همهمت أم سيد: يجطع البنات وخلفتهم.

فُتح باب الغرفة الكبيرة وصوت الجرامافون يغني أنا قلبي دليلي"، خرج أبو سيد قائلا:

- حمدا لله على سلامتها، كل اللي يجيبه ربنا كويس.

انتبهت مبتسمة ليد تربت على كتفها:

انتِ ليلى حفيدة الست أم سيد؟!

الفارس

هو خالي الأكبر، وكان أسمر وسيما ذا غرة شيب صغيرة بمقدمة شعره، ملامحه تعكس تلك الصور الفرعونية على جدران المعابد... يجلس صامتا يقرأ جريدته ويحل الكلمات المتقاطعة التي أورثني حبها في تلك الشرفة الصغيرة ببيتنا القديم.

أحببته في طفولتى لحنوه على أمي وحرصه على صلة الرحم التي تغلف كل تصرفاته كان يغرق الكل صغيرا وكبيرا بهداياه حين يأتى بأسرته من أسوان فى إجازته السنوية ليقضيها مع العائلة في القاهرة ومع أبي صديقه الأقرب، رأيت احتضانه لجدى وصداقته معه، التي لم تمنعه من أن يضع سيجارته فى جيبه حتى احترق احتراما لوجود أبيه.

حلمت بأن يكون فارس أحلامي شبيها بخالي أحمد إسماعيل، ومازال الحلم عالقا.

جدي إسماعيل

في طفولتى كنت أنتظر أجازة نصف العام للسفر إلى القاهرة على أحر من الجمر حيث بيت جدي إسماعيل صغير المساحة بسيط الأثاث. عند دخول جدي من الباب كان ينتابنى شعور عامر بالحب والسعادة ويتحول المكان إلى قصر منيف تملأ الشمس أرجاءه بدفء أحضان جدي واحتكاك ذقنه بوجنتي؛ فأنا حفيدته الكبرى والوحيدة المسموح لها بقراءة جريدته بصوت مرتفع حتى يسمعني بقلبه ودموع سعادته تلمع فى عينيه البنيتين وقسمات وجهه الأسمر.

فى المساء ومع البرد يوقد الفحم في المنقد وبجواره صينية صغيرة بها عدة القهوة وطبق كبير مملوء بـ "أبو فروة" يضعه على الفحم ويلقي بأول واحدة تتفتح بعد شيها في حجرى والباقى لباقي الأحفاد، عمري تجاوز الستين ومازلت أحن إلى حضن جدي إسماعيل.

ذكريات

صلاح أصغر شباب العائلة، مشاكس خفيف الظل، يحصل على ما يريد بمزحة صغيرة وخفة ظل متناهية.

عاشق للسينما ملك الترسو وقتها فريد شوقي، أخذ عقله وأصبح قدوته، وحين عرض فيلم سلطان شاهده عدة مرات وعاد للمنزل ليجسد لنا مشاهد سطوته على ابنة شقيقته..

بدأ رحلته، تغيرت معها خريطة حياته من اللعب مع العائلة بخيال الظل إلى دراسة الفن وظهرت موهبته الحقيقية في كتابة السيناريو والقصص الدرامية، ومع انطلاق أول أعماله الإذاعية الكبيرة عن رائعة نجيب محفوظ "الحرافيش"، عرف الناس اسم فراج إسماعيل والذى كانت تدعوه أخته الكبرى أفتقد أحاديثه معى وشقاوة ومشاكسة خالى الأصغر.

حكاوى

عندما قالوا لجدي راشد: رزقتم بحفيدة. قال: اسمها ليلى. فقد كان يعشق ليلى مراد، وقالوا لجدتي: هى تشبهك قالت: لا ده أنا كنت زي القمر. كانت شاهقة بياض البشرة مشربة بحمرة وعينين صغيرتين كحبتي فيروز، تنطق حرف الراء كأهل باريس..

لم أعرف جدي لأبى فقد توفى في طفولتي المبكرة ولكني عرفتها هي جدتي، أحببتها بشغف لم أعرف له سببا، ولكن مع تقدم العمر وتراكم الهموم على القلب عرفت أني أحببت طفولتها وضحكتها الصافية وقلبها الخالي من الهموم وجلبابها الذي تمتلئ جيوبه بكل ما يفكر به أي طفل، أحببت فيها سعادتي بالجلوس معها نتجاذب أطراف الحديث ونتضاحك.

رحمها الله ورحم زمنا خاليا من الهموم وقلبا لم يدخله إلا الحب والسعادة.

سنوات

في ليلة من ليالي الخريف الرائعة جلست وحدها في هدوء ليمر أمام عينيها شريط ذكريات حياتها منذ الطفولة، سنوات البراءة، اللعب واللهو، طلة أبيها وعشق لاينتهي حتى بعد الرحيل، سنوات المراهقة برعونتها، الشباب وكيف ضاعت حلاوته فى أحداث جسام وجاهلة جعلتها تجور على شبابها، وجوه عابثة شيطانية عبرت ونسيت حتى أسماءها ووجوه طيبة باسمة كأنها صفحات من كتاب ملائكي صالحت بهم أيامها، وعاشت معهم الشباب الذي ولى، ابتسمت ابتسامة واسعة تصل كأنها الضحكة الشاكرة ، عجوز بعدد السنين، تحمل قلب طفلة، ورعونة شابة تتوق إلى الدفء.

الفانوس

قبل رمضان بيومين اشترى أبي الفانوس كعادته كل عام وعاد للمنزل ويديه خلف ظهره ليفاجئني به، أمسكت بساقيه لأرى ما يخبئ وأنا أعرف أنه فانوس رمضان وطرت فرحا به فزجاجه أحمر وأخضر كما أردت، حملته مثل الكنز الثمين وخبأته، وليلة ظهور هلال الشهر الكريم أخرجته من مخبئه ووضعت أمي به الشمعة وأشعلها أبي وخرجت مسرعة لأنضم لأصحابي لنغنى "إدونا العادة ربى يخليكوا" و "حالو يا حالو رمضان كريم ياحالو".

حرية

لاتشكُ

فأنت من فتح الأبواب

وكسر القيود

أنت من أذاب الجليد

وصهر الحديد

أنت من حرر قلبي

فلا تشكُ من طيرانه

كسر توقع

لأنى ظننتك تشبهني في طيبتي جاء الجرح منك مفاجئا وموجعا فقتلني.

انتظار

جلست تتأمل صورته المعلقة على الحائط وتحدث نفسها عن وسامته وعينيه السوداوين بأهدابه الكثيفة، حلمت به طوال سنوات المراهقة وبيوم تعترف له بحبها، ذهب إلى الحرب، عاد باحثًا عنها. سمعت دقات على الباب، قامت متثاقلة، لمحت فى المرآة عجوزًا مرهقة.

بطاطس

نظرت إلى أمها نظرة جوع. دمعت عين الأم فلا طعام ولا مال، دخلت تبحث عن طعام، وجدت حبة بطاطس ضامرة ورغيفا جافًا. بعد محاولات مبكية تمكنت من طهي حبة البطاطس فى إناء كان به بقايا زيت، بللت الرغيف بالماء ونادت على الصغيرة فلم تسمع ردا.

رشاقة

آلام شديدة منعتها من النوم، طرقات خفيفة على الباب، تفتح، تعدو خلفهم فى رشاقة أنعشتها برودة الحشائش تحت قدميها، تتلكأ قليلا، ينادونها، تسرع فتسرع حتي تطير بصحبتهم، تشعر براحة ماأحست طعما لها منذ سنوات، تنظر إلى أسفل، تبتسم وهى تشاهد جسدها المسجى بين أيدي أحبائها.

بئر الأسرار

عندما رأته أول مرة كان الوقت ليلا، خافت، عدت بقوة، جلست بعيدا حتى لا يراها وتستطيع أن تختلس النظر من وقت لآخر، غلبها النوم، وعندما أفاقت شاهدته صافيا وفاتحا قلبه الجميل، عشقته بكل جوارحها فى لحظة من النظرة الأولى، عاشت تبثه غرامها وتشكو إليه الوجع وهجر الصحاب، وتجرى مرتمية بين أحضانه لتطفئ شوقها وتخفى فرحتها عن الناس. كل سنوات عمرها كان هو حبيبها وكل أسرارها في قلبه حتى أيامها الأخيرة قررت أن تقضيها معه، جلست أمامه بظهر منحنٍ لتودعه بدموعها، سألها حفيدها: لمن تتحدثين ياجدتى؟ أشارت إليه قائلة: حبيبى وبئر أسرارى. نظر الحفيد إلى حيث أشارت، ولم يجد إلا البحر!!!

برواز

لم يفتح باب البيت منذ وفاة الجدة، ذَهَبَتْ إلى هناك، بصعوبةٍ شديدة انفرج البابُ قليلا، العنكبوت والغبار يغطيان الأثاث، رائحة الجد تملأ المكان وتختلط بأنفاسها، تلمح بروازًا قديمًا وجهه إلى الحائط المتهالك، أدارته فرأت صورة بالأبيض والأسود لشاب أسمر فى مقتبل العمر. بأنفاس متلاحقة تمتمت: أين كنت؟ قال: رحلة طويلة منذ ذلك اليوم الحار. قالت: نعم كنت تحملنى على كتفيك وبيدك قطتى التى أضعتها فى الزحام عندما أخافها صوت سيارة مسرعة، عُدتَ بى إلى البيت وجَريتُ للشارع تبحث عن القطة، لم أرك منذ تلك اللحظة، عائداً داخل البرواز سألها: من أنتِ ؟ قالت: ليلى. ابتسم وقال: تسخرين منى؟! ليلى عمرها ثلاث سنوات!!

سجن

دمعة تلك أم.....؟ لم أصدق أنها تبكي، عهدي بملامحها الحجرية أنها انعكاس لقسوة داخلها، لا تحنو ولا تطيب خاطر أحد، عشت معها سنوات طويلة لم تشعر ولو مرة بدموع ليالي شتائي الباردة، ألجأ إليها طلبا للأمان والدفء فيزداد إحساسي بالبرد. اليوم سأنجو بنفسي من سجنها لغرفة أخرى.

الصينية النحاس

على الطبلية يتصاعد بخار المحشي المدخن برائحة خشب الكانون والبط المحمر من عشة فراخ أمي، توزع أمي قطع البط ويفوز أبي بالنصيب الأكبر، ولكن لا يتبقى له شئ، نأكل بسرعة لنلحق بالبرتقال واليوسفي، السوداني ساخن، سهرة سعيدة وضحكات ليلة رأس السنة، القشر متناثر فى كل مكان، قررت تنظيف المكان. أغلقت ألبوم الذكريات.

الفهرس

الاهداء ٥
ليلى راشد.. المراوحة السردية ٧
فراشتي ١٩
لبنى ٢٣
أبي ٢٧
أغلى طبخة ٣١
الصندوق ٣٥
العطش ٣٩
الفرح ٤٣
حوار ٤٧
المفتاح ٥٣
أمي ٥٧
آهة ٦١
تيتة ٦٥
جيوب ٦٩
حب بمت ٧٣
حب ٧٧
حرام ٨١
حضن جدي ٨٥
مكاشفة ٨٩
دموع ٩٣
رجولة ٩٧

رحلة ١٠١
رحمة ١٠٥
سراب ١٠٩
صفية ١١٣
عشق ١١٧
اتهام ١٢١
صناعة أنثى ١٢٥
حنين ١٢٩
ما بعد العاصفة ١٣٣
لقاء ١٣٧
ماعرفتكش ١٤١
حرب ١٤٥
هو ١٤٩
احتياج ١٥٣
فراق ١٥٧
وحشة ١٦١
الجدة الطفلة ١٦٥
الفارس ١٦٩
جدي إسماعيل ١٧٣
ذكريات ١٧٧
حكاوى ١٨١
سنوات ١٨٥
الفانوس ١٨٩
حرية ١٩٣

كسر توقع..... ١٩٧
انتظار..... ٢٠١
بطاطس..... ٢٠٥
رشاقة..... ٢٠٩
بئر الأسرار..... ٢١٣
برواز ٢١٧
سجن..... ٢٢١
الصينية النحاس..... ٢٢٥
الفهرس..... ٢٢٨